

# عند الامتحان... من ذكريات طالب معتقل

سيف الإسلام عيد

صفحة يَنْضَاءُ فِي الأَصْلِ

سيف الإسلام عيد

# عند الامتحان...

من ذكريات طالب معتقل

منتدى المشرق والمغرب للشؤون السجنية  
[مشروع بتوقيع أمم للتوثيق والأبحاث]  
دفاتر المُنْتَدَى [٢]  
بيروت، ٢٠٢٠/٢٠١٩  
هاتف: +٩٦١ ١ ٥٥٣٦٠٤  
صندوق بريد: ٢٥ - ٥ الغبيري، بيروت - لبنان

  
للأرشيف والابحاث  
Documentation & Research  
www.umam-dr.org | www.memoryatwork.org

  
MENA  
PRISON  
FORUM  
منتدى المشرق والمغرب  
للشؤون السجنية

إنَّ الآراءَ الواردةَ في هذه المَطْبُوعَةِ التي كان إنجازُها ونَشْرُها  
يَدْعَمُ مِنْ «مَعْهَدِ العَلَاقَاتِ الثَّقَافِيَّةِ الخَارِجِيَّةِ (ifa)» - (المُمَوَّلِ  
مِنْ وَزَارَةِ الخَارِجِيَّةِ الأَلْمَانِيَّةِ) - إنَّ هذه الآراءَ تُعَبِّرُ، حَصْرًا، عَن  
وُجْهَةٍ صَاحِبِهَا وناشِرِهَا، وَعَلَيْهِ فَهِيَ لا تُلْزَمُ، بِأَيِّ شَكْلِ مِنَ  
الأَشْكَالِ، المَعْهَدَ، ولا تَعْكِسُ، بالْضَّرُورَةِ، مُقَارَبَتَهُ المُؤَسَّسَاتِيَّةَ مِنَ  
المَسَائِلِ مَوْضُوعِ البَحْثِ والرَّأْيِ.

  
ifa  
Institut für  
Auslandsbeziehungen  
Auswärtiges Amt

## عند الامتحان...

### بَدَلٌ مِنْ «تَقْدِيمِ»

هذا الدَّفْتَرُ، الثَّانِي مِنْ دَفَاتِرِ مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِلشُّؤُونِ السُّجْنِيَّةِ،<sup>(١)</sup> لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَيِّ تَقْدِيمٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ: فَعُنْوَانُ هَذِهِ الشَّهَادَةِ، وَلَا سِيَّمَا الْعُنْوَانُ الْفَرَعِيُّ، وَ«مَصْرِيَّةٌ» صَاحِبِهَا، سَيْفِ الْإِسْلَامِ عِيدِ،<sup>(٢)</sup> كَفَيْلَانِ بِإِزَالِهَا الْمَنْزِلَ الَّذِي يَلِيقُ بِهَا مِنْ الْأَدَبِ السُّجْنِيِّ الطَّالِبِيِّ بِلِحَاطِ الرَّحِمِ الْمَوْصُولَةِ بَيْنَ طُلَّابِ مِصْرَ وَسُجُونِهَا... وَلَكِنْ، وَإِذْ هُوَ كَذَلِكَ — إِذْ لَا يَحْتَاجُ هَذَا الدَّفْتَرُ إِلَى تَقْدِيمِ، فَأَقْلُ حَقُّ هَذِهِ الشَّهَادَةِ — أَقْلُهُ أَيْضًا إِعْرَاءً بِمُطَالَعَتِهَا — أَنْ تُمَدَّحَ لِحَبْكَيْتِهَا الَّتِي تَصْطَنَعُ مِنْ إِصْرَارِ الطَّالِبِ عَلَى أَلَّا يَفُوتَهُ الْإِمْتِحَانُ مِحْنَتَهُ السُّجْنِيَّةَ بِامْتِيَازٍ دُونَ سَائِرِ الْمَحْنِ الْأُخْرَى الَّتِي عَبَّرَ بِهَا وَرَاءَ الْقُضْبَانِ وَعَبَّرَتْ بِهِ، وَأَنْ تُمَدَّحَ لِمَا تَأْتِي بِهِ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّهُ: عِنْدَ الْإِمْتِحَانِ...

مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِلشُّؤُونِ السُّجْنِيَّةِ

---

(١) وَهِيَ سِلْسَلَةٌ كُتِبَ وَكُتِبَتْ، لَا دَوْرِيَّةٌ مُنْتَظَمَةٌ لَهَا، مَدَارُهَا عَلَى الْمَسْأَلَةِ السُّجْنِيَّةِ فِي أُبْعَادِهَا الشَّخْصِيَّةِ وَالْعَامَّةِ.

(٢) مِصْرِيٌّ مِنْ مَوَالِيدِ أَيْارِ/مَآيُو ١٩٩٥. بَاحِثٌ فِي شُؤُونِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالتَّحْوِيلِ الدِّيْمُقْرَاطِيِّ فِي الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ.

صفحة يَنْضَاءُ فِي الأَصْلِ

## نَبْشٌ فِي الذَّاكِرَةِ

للذِّكْرِيَّاتِ أَشْبَاهُ تَتَدَاعَى، وَالشَّجَنُ يُثِيرُهُ حَتَّى سَكُونُ اللَّيْلِ، وَرَبَّمَا  
نَسِيمٌ مَارٌّ يُكْرِرُ لَكَ شَعُورًا لَا تَزَالُ تَدْفَعُهُ عَنْكَ مَذْكَانٌ — شَعُورَ  
الْوَحْشَةِ وَالْغَرْبَةِ، وَغَرْبَةً فِي الْوَطَنِ أَشَدَّهَا!  
وَأَنَا عَلَى الْمَوْعِدِ كُلِّ عَامٍ، مَعَ كُلِّ قَدُومٍ لِشَهْرِ أَيَّارِ/مَآيُو، حِينَ يَتَأَهَّبُ  
الطُّلَابُ لِامْتِحَانَاتِ نَهَايَةِ الْعَامِ الْجَامِعِيِّ.

أَنْذَكُرُ بِهَجَّةِ الشَّابِّ وَأَمَالِهِ الَّتِي يَخْطُ بِهَا أَعْتَابَ الْجَامِعَةِ، شَعْفَهُ،  
حُبَّهُ لِلْعِلْمِ وَسَعْيَهُ لِأَنْ يُزِيلَ غِشَاوَةَ الْجَهْلِ الَّتِي تُقَاوِمُ لِلْبَقَاءِ.

تِلْكَ هِيَ قِصَّتِي الَّتِي حَدَّثْتُ فِي مَسْتَهْلٍ عَامِيٍّ الْأَوَّلِ فِي الْجَامِعَةِ!  
فَقَدْ قَضَيْتُ نِصْفَهُ الثَّانِيَّ مَعْتَقَلًا!  
وَلَمْ أَتَخَيَّلْ أَنْ يَضِيعَ عَامٌ كَهَذَا هَدْرًا، وَأَنْ يُحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ دُخُولِ  
امْتِحَانَاتِ نَهَايَةِ الْعَامِ!

وَتِلْكَ هِيَ قِصَّةُ الْكَثِيرِينَ غَيْرِي مَنْ لَا جُرْمَ لَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ  
الْقِيَامَ بِمُهْمَتِهِمُ الْأَسْمَى فِي الْحَيَاةِ: طَلَبِ الْعِلْمِ... لَكِنَّهُمْ فِي بِلَادِ  
الظُّلْمِ!

وَيَبْقَى الرَّابِطُ الْمُشْتَرِكُ بَيْنَ كُلِّ تِلْكَ الْقِصَصِ شَخْصٌ طَالِبِ الْعِلْمِ

الذي يُعْتَقَلُ في بلاد الجُور، ولا يَيْئَسُ، ولا يفتُرُ في السَّعْيِ حتَّى ولو كَلَّفَهُ الأمرُ حَيَاتَهُ.

في السُّجْنِ، وراءَ قضبانِهِ وجدرانِهِ، لم أتوانَ لحظةً عن التفكير في كيفية تحصيل العلم، واعتبرتُ اعتقالي فترةً أخلو بها مع نفسي، وكتبي ومع كُلِّ صاحبِ تجربةٍ قابلتُهُ في كلِّ زنازةٍ مررتُ بها...



## شبابٌ يَنْضَجُ في بَرَاثِنِ الْمُعْتَقْلِ!

كان ذلك بعدما فرغتُ من أداء امتحانات الفصل الأول في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، عائداً إلى بلدي، حيث وَجَدْتُني أساق إلى ظلمات المعتقل لا إلى أحضان البيت! هناك عانيت أنواعاً من الفَقْدِ والغربة، كان أقساها عليَّ فَقْدُ الأهلِ والأحباب، وَفَقْدُ الأملِ الذي لاحَ لي بعيداً... ومع اقتراب امتحانات نهاية العام شُغِلَ ذهني عن أي شيء سواها، وخصوصاً أَنَّهُم يُجِبُّونَ أن يتهكموا ويتلاعبوا بأمالك التي تركز إليها حين تكون في قبضتهم — تلك الآمال التي يخافون منها أيما خوف وأنت حرّ تسعى في الوطن المزعوم!

صارت عادتي اليومية أن أُلِحَّ في طلب أدائي للامتحانات؛ حتى أبرموا لي أمراً، وتحديدًا في يوم الجمعة، الثاني من شهر أيار/مايو.

فوجئت يومها بصوت عالٍ يُنادي باسمي في كلمات صاخبة: «سيف الإسلام، اجهز. ترحيل. امتحانات» كانت تلك الكلمات ثقيلة على أذني لها وقع الكهرباء التي رَحَّبَتْ بي في أول أيام الاعتقال.

قمت فزَعًا من نومي، هَرَعًا أَجْهَزُ أغراضي، وأَعِدُّ كتبي وأقلامي  
وكسرات خبز أتقَوِّ بها على طول الطريق، وليس للمعتقل شيء  
سواها في هذا السفر غير المألوف. فما يُسَمَّح له بشيءٍ إلا  
بعضٍ من لباسه البالي، وشيءٍ يسير من الطعام، وبعضٍ من  
الكتب التي تُرَاجَعُ أمنياً على أي حال...

خرجتُ من زنزانتني في لباسي الأبيض الناصع، يقتادني شرطيٌّ  
رديءُ الهيئة، إلى الزنزانة المتنقلة الزرقاء، (عربة الترحيلات)، —  
خرجت لا أعلم مقصدي.

تذكرت حينها ما درسناه من أن القانون الدولي يكفل لأسير  
الحرب أن يعلم مقصد ترحيله!

لكن يبدو أن جرمي، عندهم، أكبر من ذلك. كنت في تلك  
العربة وحيداً إلا من الحراسة عن يميني وعن شمالي، يُزيِّن يدي  
ذاك القيد الحديدي الغاشم، ولا أملك سوى الابتسامة التي تُحبط  
كبرياء السجّان.

تحركت العربة، وأصوات المحركات تعكّر صفو تجلّي الصباح،  
وهدوء الطبيعة المعهود في يوم الإجازة الأسبوعية. حاولت  
السؤال: «إلى أين المسير؟»، فأجابوني: «بالطبع إلى امتحاناتك  
يا نابغة زمانك!»...

لم أجد مُؤنِّساً في هذا الطريق سوى كتاب اللّٰه، وكان اللّٰه  
يُرأسلك من خلاله... قرأت قول اللّٰه: «يَرْفَعُ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ  
وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»، فأحسستُ  
بعظم المقصد وسموّ المهمة. انتهيت من قراءتي لآيات كتاب  
اللّٰه، ووقفت أنظر من نافذة العربة المغلّفة بالأسلاك... وكأنّه  
يُراد بِكَ ألا ترى الحقيقة إلا مُقَطَّعَةً الأوصال، غير مكتملة!

إنه الطريق الذي اعتدتُ رؤيته أثناء سفري للكلية، وعلى جانبيه أراضٍ خضراءٌ مدَّ البصر يستكين إلى النظر لها المتأمل، ولكن الحالة غير الحالة، والهيئة غير الهيئة... في الطريق تَلَهَّيْتُ بالنظر كلَّ حين من النافذة الصغيرة... رأيت الناس على نمط لم أعهده، كأنهم يائسون يسرون خاضعي الرقاب، هالاتهم لا تُؤذَن بغيث قريب! لعلَّ ذلك لأنني أنظر بعينٍ غير التي عهدت أن أنظر بها.

حاولت أن أُسَلِّي نفسي بالقراءة، فوقع الاختيار على كتاب من كتب التاريخ يستقطع بعضاً من القصص وَيُحَلِّلها، وأراد القدر أن أبدأ بقصة «فتنة خلق القرآن» التي تحكي عن مقاومة الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله عنه، وكيف صَمَدَ في وجه الظالم دفاعاً عن العلم الصحيح، ولم يَبِعِ الحقيقة بهوى السلطان، ووقف شامخاً إلى أن انتصر الحق على يديه، وخلده التاريخ، فشعرت بأنَّ هذه الرحلة لأمرٌ جَلل؛ وقد حدث ما خِلته... سرت بعمق الإيمان ووعي الحقيقة إلى مقصدي الذي لم أعرفه. قَطَعَ هذا التَّفكيرَ توقُّفُ العربة أمام أحد المساجد الصغيرة ليؤدِّي الحراسُ صلاة الجمعة عسى الله أن يتقبل منهم! وصلت الجمعة ظهراً وحدي وأنا مقيّد داخل العربة.

سارت العربة بنا في طريق جديد لم أسلكه من قبل أشبه بالصحراء، تكتنفه الهضاب من كل ناحية. وَصَلْتُ إلى مكان غريب عجيب... هناك رأيت لافتة تدل على أن هذا المكان هو أحد السجون العمومية التي لم أكن لأتخيّل يوماً من الأيام أنني سأدخلها ولو حتى زائراً!!

رفضت النزول أو التوقيع على أي ورقة حتى أُبلِّغَ أهلي بمكاني،  
وأصررت على ذلك حتى استُخِدمَت القوةُ لإجباري على النزول،  
ولم تُجِدِ حَيْلُهُم الغبيةُ بل انطلت حيلتي، وأبلغتُ أمي عن  
طريق هاتف أحدهم نظيرَ مبلغ من المال.  
تحدثت إلى أبي في عشر ثوانٍ فقط. لم يسمع مني سوى كلمة  
واحدة: «أنا بخير والحمد لله وصلت إلى سجن...» في صوت  
بدا عليه الإحساس بالظلم الشديد.

## حامي القوم جاهلهم

ها أنا في مكان مجهول جديد... في جنوب البلاد التي أعيش في شمالها... زرت هذه المدينة قبل ذلك بشهور في رحلة مع أصدقائي نفتش عن جمال الطبيعة، وإذا بي، بعدها بشهور قليلة، أكتشف في المدينة ذاتها قبح الظلم ووحشته! حقاً تلك السجون قُبورٌ تُدْفَنُ فيها كل معاني الإنسانية، وتُطْمَسُ فيها البراءة، وتتلاشى فيها أقلُّ معالم التفاؤل!

لا أنسى ذلك الشرطي الذي تكفَّل بتفتيشي قبل الدخول إلى مُسْتَقَرِّي الثاني. كان لديه مقدارٌ زائدٌ من ثقة الجاهل بنفسه وعقله، ولكنَّ مِثْلَهُ جَمٌّ غفير مَبْثُوثون في محطات المواصلات العامة يلتمسون أيَّ شاب بهيئة طالب، وحبذا لو كان حاملاً كتاباً، ليفيضوا عليه من التعنت والحنق الذي يقضُّ مضاجعهم من أولئك المتعلمين المثيرين للمتاعب! وهكذا أَفْرَعَ صَاحِبَنَا مَنظَرُ الكُتُبِ برفقتي، فصار يُقَلَّبُ فيها يميناً ويساراً، ولا يدري شيئاً مما يحمل، وراح يسبُّ التعليمَ والعلم وحامله، وفوجئت أنه يحمل الكتب معكوسة! رأى كتباً باللغة الإنكليزية فهاج مُتَهَكِّمًا؛ لا لشيء إلا ليسترَ

جهله الذي ينخرُ في كبريائه ويُشعرُه بالنقص كلما رأى متعلماً أو مثقفاً.

وبعدما صرفني ذلك المُفتِّشُ الثَّقافيُّ سُجِبْتُ في دهاليزَ متداخلةٍ أسلمتنا إلى ردهة تتفرق على جانبيها المحابس. وكان أوَّل مَنْ لقيتُ مُعتَقِلاً طويلاً القامة، ضخماً الجثة، طويل اللحية، وبابتسامة مطمئنة أوماً إليّ ليُعلمني السَّجَانُ أَنِّي، في هذا المكان، سأملكُ مع هذا الرجل الذي يُدعى «الشيخ وجدي» والذي ينادونه أبو أنس، وأنس هو ابنه الذي قضى نحبه في «أحداث المنصة»<sup>(١)</sup> ... (ولأبي أنس ابن آخر لم يبرح عامه السادس عشر، وهو معتقل في سجن آخر يليق بنضارة عمره!).

كلُّ ذلك يُقْصُّ عليَّ وأنا غارقٌ في مزيج من الصدمة والدهشة؛ لكنَّ كتابات الجدران تخطف النظر رغماً عنك... على جدران المعتقل يُفرغُ المحبوس ما عجز ذهنه عن تحمله.

طرحت نفسي على الأرض ألتقط أنفاسي وأستجمع ما ألمَّ بي، وما كِدْتُ أفيق من ذهولي حتى دعاني السَّجَانُ صائحاً بأنِّي سأُنقل من هذه الغرفة المُؤنسة، طبقاً لمعايير السجون، إلى مكان آخر، وبِحَرَكَاتٍ أليَّةٍ حَمَلْتُ أمتعتي البالية وكتبي رفيقةً

---

(١) «أحداث المنصة» هي الأحداث التي وقعت في ٢٧ تموز/يوليو ٢٠١٣ حيث عمدت قوات الأمن المصرية، متوسلة بأساليب العنف المفرط، إلى فضِّ اعتصام رابعة العدوية الذي تلا عزل الرئيس الراحل محمد مرسي، ما أدى إلى سقوط عشرات القتلى والجرحى، ومن ثمَّ وصف هذه «الأحداث» أحياناً بـ«المذبحة»...

الحقّ الصامتة التي توحى لك بالتصبر والجَلد بمجرد النظر إليها، من أجل ما فيها أنا هنا، فالمستبدُّ عدوُّ الكتاب الأول!

وما أكثرَ فزَعَهُم من حاملي الكتب وناشري المعرفة أينما حلُّوا؛ فالمتقف بالنسبة إليهم عَدُوّ تمشي على قدمين، لا يجب أن يُترك حرّاً طليقاً بين الناس؛ إنّما شأنه، شأن حامل الطاعون، أن يُعزل بعيداً منفرداً ويبدو أنّهم تَوَسَّموا في ذلك فأبرموا أمرهم أن يُلقوني في غَيَابَاتٍ أكثرَ ظلمةً...

صفحة يَنْضَاءُ فِي الأَصْلِ



## في طريق التآديب

دفع بي السَّجَّان للسير في ممرات معتمة تفوح منها رائحة المظالم! حتى وصلنا إلى بابٍ حديديٍّ تعلوه عبارة مفزعة: «عنبر التَّشْهيلات».<sup>(١)</sup> ما إن عبرنا الباب حتَّى وَجَدْتُ علي الجانبين زنازينَ مُرَقَّمَةً على غير ترتيب، ويبدو أنَّ لكل رقمٍ إشارة يعلمونها في ما بينهم تدلُّك على مدى شناعة التهمة الموجهة إليك!

ما إن فُتِح لي بابُ الزنزانة رقم ٧٢ حتى دارت بي الأرضُ، وصُعِقْتُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ أُنِي وصلت إلى هذا المكان الذي طالما سمعت عنه: «زنزانات التآديب»! قبرٌ يُدْفَنُ فيه الحيُّ، لكن بشرط أن يتذوَّقَ طعم الموت ويظل حيًّا!

كصندوق عرَّضه متران، وطولُه بالكاد يكفيك واقفًا. أثاثه: دَلْوَان، أحدهما لقضاء الحاجة، والآخر... إن كانت لك حاجة أخرى! مُعْتَمِّمٌ

---

(١) عنبر التَّشْهيلات: مُصْطَلَحٌ شَرْطِيٌّ يُرَادُ بِهِ مَخْزَنُ الْمُخْلَفَاتِ البالية والحاجيات التي لا لزوم لها. تَوَسَّعًا، اتَّخَذَ عنبر التَّشْهيلات مَعْنَى سَجْنِيًّا يُفْصَدُ بِهِ المَعْرِزُ الذي يُودَعُ فِيهِ السُّجَّانُ غَيْرُ المُنْتَعَاوِينَ مع السُّلْطَاتِ السُّجْنِيَّةِ.

من معاني «التَّشْهيلات» أيضًا، مَكَاتِبُ القُوَّاتِ المُسَلَّحَةِ القَائِمَةُ فِي المَطَارَاتِ وَفِي مَحَطَّاتِ السِّكِّ الحَدِيدِ وَالمَنَوَظُ بِهَا تَسْهِيلُ إِجْرَاءَاتِ المَرْمُوقِينَ مِنْ أَفْرَادِهَا وَخَدْمَتُهُمْ، وَلَعَلَّ هَذَا المَعْنَى هُوَ الأَوْصَلُ رَجْمًا بِمَعْنَى «شَهْلٌ فِي...» المُحَقِّقُ فِي قَوَامِيسِ العَرَبِيَّةِ وَالمَقْصُودِ بِهِ «الإسراع في...»؛ «شَهْلٌ فِي عَمَلِهِ: أُسْرِعَ فِي إِنْجَازِهِ».

لا يتسرّب إليه إلا شعاعٌ آتٍ من قنديل يتوسّط المكان. هناك، حيث أنت وحدك، صادق العناكب والفئران إن شئت! اقرأ عليهم كتبك إن استطعت! حدّثهم عن حبك لوطنك وشغفك بأمالك إن أحببت! أو اصمت! اصمت حتى لا تستنفد طاقتك هباءً!

لكنني لم أتمالك أن دفعتُ السّجّانَ كالمجنون، وصحّتُ بكلمات تحت لكلماته: «أنا طالب ولست بمجرم! أخرجوني من هنا! أعيدوني مع الآخرين!» ولكن هيهات. أُلقيتُ مرتطمًا بالجدار وأُغليقُ دوني الباب.

تَحَسَّسْتُ موضعَ الدماء في وجهي، وجلست لا أحرّك ساكنًا، وجال فكري في أمور كثيرة، وحدّثتني نفسي أنّه لا سبيل للخروج سوى بالمقاومة، ولو بالقليل مما أملكه: صوتي! صار الهتاف سلاحِي حتّى فزِعَ مَنْ في المكان وجاؤوا مسرعين: «ماذا تُريد؟»

لم أُرِدْ سوى بعبارة واحدة: «الخروج من هنا!»... وما إن زادت النبيرة حتّى فُتِحَ الباب وقادوني إلى غرفة ضباط المباحث، وهي غرفة فارهة مُجهزة بكل سبل الراحة: مُكيّف هواء، طعام مجهز، تلفاز وعسكري خادم.

دخلت على الضابط فسألني: «ما اسمك؟» أجبت: «سيف الإسلام، وأنا طالب علوم سياسية أتيت إلى هنا فقط للامتحانات ولا أستحق هذه المعاملة الحقيرة» فردّ ساخرًا: «بل تستحق لأنك من "الإخوان"!».

أشرتُ إلى لباسِي الأبيض وقلت له بسداجة الحيران: «هذا يُشير إلى أنّني لم أحاكمُ بعدُ، وأنّني ما زلت مُتّهمًا...»، ردّ بغضب: «أنت هنا طوع مزاجي يا شاطر!»

ثم أمر السّجّانَ بأن يسوقني إلى ذاك القبر مُجدّدًا، وبالقوّة!

## الْخَلْوَة وَالْبَحْثُ عَنِ الْمَعْنَى

بِتُّ لَيْلَتِي أَهْتَفُ حَتَّى بُحَّ الصَّوْتُ، وَخَارَ الْجَسَدُ، وَنَمْتُ لِأَسْتَيْقِظَ فِي سَاعَةٍ لَمْ أَعْرِفْهَا، فَهَذَا الْقَبْرُ مُظْلِمٌ صَبَاحًا وَمَسَاءً لَا تَدْرِي فِيهِ مِيقَاتًا، وَكُنْتُ أَتَّبَعُ مَوَاقِيتَ الصَّلَاةِ بِالْقَلْبِ، لَا أُدْرِي مَتَى الْفَجْرُ وَمَتَى الْعِشَاءُ.

ظَلَلْتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ يَوْمَيْنِ أَتَجَرَّعُ فِيهِمَا مَرَارَةَ الْأَلَمِ، وَلَا أَرَى إِلَّا شِعَاعَ نَوْرِ ارْتَسَمَ عَلَى الْحَائِطِ الْأَسْوَدِ كَقَمَرٍ فِي ظِلَامٍ لَيْلٍ حَالِكٍ؛ تَحْتَهُ أَكْتُبُ أَوْ أَقْرَأُ كِتَابًا عَهَدْتُ صَحْبَتَهُ كَلِمَا اشْتَدَّ عَلَيَّ الْخَطْبُ، حَيْثُ كُنْتُ أَمْرُ الصَّفْحَاتِ عَلَى الشِّعَاعِ، فَتَتَضَحَّ السُّطُورُ كَأَنَّ الْقَمَرَ يَنْبُرُ طَرِيقًا مَفْعَمًا بِالسَّوَادِ.

صَرْتُ أَتَحَسَّسُ مَوَاطِنَ الْحِكْمَةِ فِي مَا أَنَا فِيهِ، وَأَنْكَشِفُ لِي الْمَعْنَى، وَلَا يَنْكَشِفُ إِلَّا مَعَ مَرَارَةِ الْمَعَانَاةِ، وَلَا يَفْهَمُهُ الْإِنْسَانُ حَتَّى يَذُوقَ الْعَلْقَمَ. وَأَمَنْتُ عِيَانًا بَيَانًا أَنَّ اللَّهَ يُنْعِمُ بِالْبَلْوَى، وَإِنْ عَظُمَتْ، وَيَبْتَلِي بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنُّعْمِ. وَإِنْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ تَحْمِلَ كُلِّ هَذَا فَهُوَ إِيمَانُنَا بِغَايَةِ نَعِيشٍ مِنْ أَجْلِهَا — غَايَةِ فَوْقِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ اللَّذَيْنِ يَعْتَنِي بِهِمَا أَبْنَاءُ الْاسْتِبْدَادِ الْبَرَّزَةِ، وَحَبِذَا لَوْ وُقِّرَا مَعَ قَلِيلٍ مِنْ مَدَاعِبَةِ مَوَاطِنِ النَّشْوَةِ الَّتِي زُرَعَتْ فِي الْعَقْلِ الْجَمْعِيِّ لِلشُّعُوبِ:

نعرات الأمجاد الزائفة، مستقبل البلاد وأحلام يقظة الأجيال، وما شئت غير ذلك من تغافل البؤساء.

في الخلوة، أحسست بعظمة الطريق الذي أسلك، رغم صعوباته، وضيق جَنَبَاتِهِ كضيق زناناتي هذه أحسست بأنَّ هناك مَنْ هو معي يحادثني في قلبي: إلهًا لن يترك مسكينًا مثلي وحده...

غلبني النوم مرة أخرى، وأحسست بأنِّي أطلت فيه كي أستريح وأستجمع قواي، وأبدأ مقاومتي من جديد للخروج من هذا المكان. قمت فواصلت الصباح والهتاف فأتى إليَّ مسرعًا شَخْصٌ ضخم الجثة، وقال لي: «ماذا تريد؟ طعامًا؟»

فرددت: «لا! أريد أن أخرج من هذا المكان، وأبْلِغ الضابط المسؤول أنني في إضراب مفتوح عن الطعام».

أحسب أنَّ هذا الشخص لم يعلم ما هو الإضراب عن الطعام، فذهب ثم أتى مسرعًا غاضبًا مستشيطًا، فعرفت أنَّ الضابط قد أفهمه القصة، وأنَّ الإضرابَ هو وسيلة احتجاج.

ظللتُ ثابتًا على موقفي حتى فُتِحَ الباب، فخرجت مُصِرًّا على عدم العودة مرَّةً أخرى إلى ذاك القبر!

أخذتُ إلى مكانٍ آخرٍ أشد قذارة، وهنا بدأت معركة أخرى كنت فيها خصمًا لاثنين من المخبرين، والمُخْبِرُ معروف في الثقافة السياسية المصرية بِضَعْفِ عقله وضخامة جسده وعبوديته لأوامر الضابط.

آل الأمر إلى دَرَكَةٍ أخرى انحدرت فيها! فحُبِسْتُ في مكانٍ آخرٍ أشد قتامةً وسوءًا!

فإن كُنْتَ تشكو من الزنانة الانفرادية، فتعال لنشهدك ما يُفعل  
بغيرك، حتى تذوق العذاب قبل أن نُوقعه بك!

بقيت مذهباً أترقب، حتى عدتُ لأستجمع قواي، وللصباح مرة  
أخرى، فأتوا لإخراجي من ذلك المكان إلى آخر، لا نُزولاً عند رغبتني  
ولكن كي لا تألف مُستقراً فيهنّ عليك أمرهم.

صفحة يَنْضَاءُ فِي الأَصْلِ

## حين يصيرُ المذنبُ والبريءُ مُجرِمين!

لا أعلم هل السجن بهذا الامتداد أم أنه بُعِدَ تُحْدِثُهُ المعاناة!

سرتُ في دهاليز أُخَرَ تُشابه سواها في التصميم، والرائحة الكريهة، ووجوه السَّجَّانين؛ جدران سوداء قاتمة قد اشتكت من كثرة ما لاقت من ألوان الظلم والأين والصرخات التي أطلقها المعذبون؛ كأنها قد اتشحت بالسواد حدادًا على تلك الأرواح التي أزهقت بين جنباتها جرأ التعذيب الذي يلقاه دعاة الحق وطلاب الخير.

سرتُ إلى مجهول ينتظرنني، ولكني وجدت في هذا المكان الجديد عالمًا آخرَ وأنا سًا آخرين، عقول متباينة، تجمعوا على غير ميعاد، أظن عدتهم عشرون رجلًا، تحلَّق حولي منهم ثمانية، غريبو الأطوار أو هكذا بدا لي، تلقفوا أمتعتي بصمت ليلقوها في زاوية كانت تنتظرنني...

كان لكل منهم سمت خاص، إلا أن أصحاب الشَّاماتِ والنُّدوبِ الظاهرة من اعتياد المشاجرات بدوا الأبرز للوهلة الأولى... هذا مُهنَدَمٌ حتى في ثياب المساجين، عليه أمارات التحضُّر، ربَّما كان مهندسًا أو طبيبًا، وذاك صاحب لحيّة، عبوس في السجن، عبوس

خارجه؛ وآخر كمثل هيئته ولكن تقاسيم وجهه مستكينة، انطبع عليها مما وقر في صدره. وشابُّ في مثل سنِّي، إلا أنه شاحب اللون مع سواد تحت عينيه، ورجفة لا تُفارقُ يديه. نعم، قلَّما يلتقي هذا الجمع خارج مكان كهذا!

من كان يتصور منهم أنَّه يعيش مع هؤلاء الأَصناف من الناس على صعيد واحد؟ يخدم بعضهم بعضًا، يتسامرون ويتناجون، يستحيي السياسي أن ينزوي في ركن عن صاحب الجناية، وإلا خالف فعُله قَوْلَه؛ أليس هو المُنادي بإصلاح المجتمع؟ لا يستحقر مُتعلِّمُهُم جاهلُهُم، ولا يستعلي برِئُهُم على مُذنبِهِم؛ فإن كان منهم بريئون من وجه ما، فَهُم مُتَّهَمُونَ من وجوه أُخر!

لكن أكثر مَنْ جذبني إِلَيْه، شاب في مثل حالي، إلا أن تَصَرُّفَاتِه غريبةٌ وَعَيْرٌ مُتَوَقَّعةٌ، بدا عليه الاضطراب كأنَّ وراءه سرًّا يتعاضمه. وكنت أتعجب منه أنَّه لا يقرب معنا الصلاة أبدًا وإنَّ أَلْحَحْتُ عليه، ولم أعلم منه أنَّه لادينيُّ أو حتى مُعتنِقٌ لملَّة غير الإسلام؛ وصار عجبي منه يزداد حتى باح لي بِسِرِّه، وعَرَّفَ بشخصه، — وهو (محمد ...)، صاحب قضية طائفية شهيرة ادَّعى فيها أنَّه تحوَّل عن الإسلام للمسيحية، ثم رجع عن هذا القرار بعد خروجه من السجن.

قضيت جُلَّ وقتي أُمْنِي نفسي بأنِّي ذاهب للامتحانات لا محالة، حسبما نبهني ضابط المباحث قُبيل نقلي إلى هنا. ومن أجل ذلك حاولت أن أُلْمِمَ شتات تركيزي وأشحد ذهني لمذاكرة المادة المنتظرة.

ولكن لا أتذكر أنِّي قرأت كلمة واحدة أو وعيت شيئًا حتى غلبني النوم.



استيقظت لصلاة الفجر دون أن يوقظني أحد كما اعتدت، وبدأت بالتأهب للذهاب وانتظرت المنادي ليأخذني إلى حيث لا أعلم مجدداً.

وبقساوة الانتظار مرَّ الوقت الذي كنت أحسبهم ينادونني فيه، وهو الساعة الثامنة، وقت الترحيلات في السجون المصرية، حتَّى أتتِ العاشرة وأتى معها صوت الشاويش يصيح باسمي: «سيف الإسلام السيد صبحي... زيارة!»!

صفحة يَنْضَاءُ فِي الأَصْلِ

## وَمِنَ الْحَنِينِ مَا قَتَلَ

وقعت تلك الكلمة مني موقعها، حتى تَسَمَّرْتُ غير مصدق أنه أصاب الخبر.

ربما أراد غيري، أو لعلها اضطرابات من قلة النوم. بلى، هذه الكلمة لي! كل ذلك من وقع كلمة، ليست إلا خمسة حروف إلا أنها في عداد النفس سنين طوال عشتها في كَنَفِ أبٍ وأُمٍّ، لم أتصور أن يأتي مَنْ يسلبني ذلك الأمان بجوارهما.

أما الحنينُ والشوقُ فكانت أعلمُهُمَا لهُمَا من نفسي، ولكن في المعتقل، تحت سطوة مُسْتَبِدٍّ لا يرقب فينا إلهاً ولا ذمة فالخَطْبُ عسير، عصيٌّ على التعبير، لا يدركه إلا من ذاق مرارته! ورحت أغالب نفسي وأوهمها أنَّ الزائر كائنًا من كان يبعد أن يكون أحدهما! لعله مندوب الامتحانات يا نَفْسُ يا مسكينة!

بالفعل دارت في رأسي كل الاحتمالات: ربما يكون صديقًا، ربما أحد المسؤولين بالكلية، ربما لجنة الامتحان ستتعقد بالسجن مبكرًا، ربَّما ربَّما!

ولِمَ أتعجَّل شيئًا قبل أوانه؟ ولِمَ القلق؟ أَمِنَ المفترض أنه بعد ساعتين سيعقد الامتحان؟ أين اللجنة؟ وأين الأوراق؟ وأين الطلاب

الذين تجمعوا ليتناقشوا في أمور تخص العلم والامتحان؟ وأين مكالمة أمي وأبي لِيَطْمَئِنَّا على استيقاظي قبل الامتحان بساعات كافية لأتاول الفطور وأُراجِع المادة كما عهدت طيلة سنوات تعليمي؟!!

خرجت لملاقة الزائر وفي يدي كتبي وقلمي وكأني ذاهب للامتحان بالفعل كما طاوعتني نفسي؛ ولم أكن متهيئاً قط لزيارة ما. خرجت وكأني ذاهب لملاقة ورقة وأسئلة يتعرق لها جبیني وتعتمر لها ذاكرتي، تحوطني هراوات العساكر ويتقدمني مُخْبِر يتحسس الطريق، وسرنا من الدهاليز الملعونة مرة أخرى حتى خرجنا منها، وانكشفت لنا الشمس من فوق أسقف السجن المظلمة التي تمنع الشمس والهواء فضلاً عن الحب والحياة ورؤية السحاب ومناجاة القمر!

انكشفت لنا الشمس، فانكشف معها أناس كثيرون، قد أقبلوا طمَعاً في رؤية أحبابهم وذويهم، تلفح حرارة الشمس وجوههم، فتصير مزيجاً من الوجوه الحزينة المتعركة المتشوقة لرؤية الأحباب: هذه أمُّم قد انتظرت لساعات حتى تقرأ عينها برؤية فُلْدَة كبدها. وذاك أب قد انحنى ظهره من كثرة ما حمل لابنه من أمتعة وزاد، وتلك زوجة صابرة محتسبة قد جمعت في وجهها شعورين متناقضين: شعور الشوق وشعور الإرهاق من طيلة الفراق، وأولاد أطفال شَيَّبَهُم الانتظار لساعات أمام أبواب السجن، وذا كهل بلغ من الكِبَر عتياً قد أتى لرؤية ابنه الرجل الذي فارقه مُكرهًا وهو في أشد الحاجة إليه.

رأيت مشاهد متناثرة في مكان واحد تحوطها سلاسل الظلم، وتحرسها عيون القهر المطيعة.

قاد المخبر هذا «الموكب»، أنا ويحوطني أربعة من العساكر صغار السن وشاويش، وسلكوا بي طريقًا لا يسلكه سوى «معتقل ذي شأن»، فقصدت أن أسيرَ مُتَبَخِّرًا، وكأن هؤلاء هُنا حولي لحراستي دون غيري، وعدلت من ياقة قميص السجن الأبيض، وسط الأهالي الذين رحبوا بي كأنهم يعرفونني منذ زمن بعيد، وارتفعت دعواتهم مع اختراقي لتلك الصفوف، وبالطبع عرف الكل أنني طالب مما أحمله من الكتب.

في ملتقى الزيارات، تختلط الأصوات وكأنها تحوم في عالم الشوق؛ هنا الحنين، أسمى معاني العشق، وأقصى مشاعر الفراق، هنا تتولد هذه المعاني بين هذه الأسلاك.

هنا تذوب الكلمات في فرحة لا تُعكِّرها إلا دموع الفراق الذي لن يلبث أن يحين بعد قليل من الوقت.

هنا وردة تُقدِّم من زوج لا يملك سواها وراء القضبان، قَطَفَها من حديقة السجن التي كنا نمر عليها أحيانًا، واحتفظ بها في مصحفه أو قميصه ليقدمها هدية لزوجته الصبور.

هنا أحضان تعصر أيام الفراق وتجتزئ منها دقائق. هُنا فتى جلس ليحكى لأهله كيف صار رجلًا بفعل مصائب الحياة. وكيف يتعلم القرآن ويؤنسه قيام الليل، وكم من الكتب قرأ ونوادر الزنانة وأسمار الرفاق، مُصَبِّرًا إياهم بأنَّ الفرج يعقب الشدة، وأنَّ الخلاص قريب.

أخذت ألتفت يَمَنَةً ويسرة، فلا أجد أحدًا أعرفه... قَلَبْتُ في الوجوه حتى تلاقت عيوننا!

هو، هو! تلك القامة التي لَمْ تَنَحِنِ لأحد، وتلك اليد التي لطالما أنهضتني وعلمتني السير في ركاب الحق مهما عصفت بي صروف الدهر.

تَقَدَّمْتُ خطوةً لأقترب وسط هذا الزحام، وكأنَّ المئات قد سكتوا  
واختفوا من حولي، وما أرى سوى هذا الجبين الناصع الذي اقتديت  
به في عدم انحنائه لطاغية أو ظالم أو مستبد، ولم ينحنِ إلا لله.

التَّقَّت الأعين... وما إن التقت حتَّى وثبت الأجساد وانتفضت الصدور،  
واحتكت القلوب والضلوع تكاد تتشابك من شدة الشوق.  
صمت الكلمات إلا من نحيب قد غلبني وغلب هذا الرجل الخمسيني  
الذي قطع الطريق في تسع ساعات حتى وصل إلى هذا السجن.  
طال صمتنا ولا نكاد نيين، رغم أنني وإياه لا تنقصنا طلاقة القول  
وفصاحة اللسان!

## بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي

حَصَرَ أَبِي، فكانت عظمة اللقاء الذي سبقته شهور من الفراق والنوى. ومن المفارقات أَنَّهُ فُكَّ أسرهُ هو الآخر قبل اعتقاله بشهور معدودة. وكانت شهورًا عرفت فيها من معاني الأبوَّة ما لم أكن لأعرفه إلا بهذه الطريقة: غياب الأب غيابًا قهريًا لا يُعلم مكانه ولا مصيره! ربما كان للقدر عمله في تهيئتي وتهيئته لمصاب من هذا القبيل... وبالرغم من أَنَّ أَيًّْا منا لم ينخرط في سلك تنظيم معين، إلا أَنَّ الاعتقال لم يعد مقتصرًا على أفراد التنظيمات، بل يكفي أَن يُشاع عن الواحد من الناس أَنَّهُ يستعمل ذهنه أكثر ممَّا ينبغي لِيُزَجَّ به في السجن.

ما زلت أحتفظ بالقصاصات التي كان يُعطيها لي أبي حين عرفنا مكان اعتقاله وسمحوا لنا بزيارته... كانت أشبه بخيطٍ جديد يتَّصل بيني وبين أبي، خيطٍ كان له ما بعده... لَمْ يَعْذُ يخشى على صغيره من الخطف وقد عاش معنى صيرورة المقادير التي لا يملك لها أَحَدٌ دَفْعًا. تبادلنا أطراف الحديث، وأشعل حديثنا شوقي لأمي وأخواتي، لكن بدا لي أَنَّهُ يحمل خبرًا «غير سار» يَتَرَدَّدُ في إعلامي به. ثم قال: «اسْتَعْوِضِ اللّٰهَ في عامِك هذا، وأفرغْ هَمَّكَ مِنْ أَمْرِ الامتحانات».

وبعنفوان شاب له من العمر تسعة عشر عامًا صحت مُتَدَمِّرًا: «كيف؟  
كنت أظن أن هذا أبسط حقوقي من غير مراة ولا عنت!».

تَفَهَّم حالي، وسرعان ما هَدَّأ من روعي ثباته في إلقاء الكلام: «وماذا  
يضيرك تأخر عام عن أقرانك؟ أتضع اعتبارًا لحديث الناس؟ قد أُفحمت  
في مكان ليس لمثلك أن يطاءه، وإنَّ يومًا في معاناتك هذه كَألف يوم  
مما يعدُّون مِنَّ أيام الجامعة. أما تدري كيف تسير الأمور؟ تَبَرَّاتِ  
الجامعة منك، وكل ما تحاوله من تلك الإجراءات سيستنفدك هدرًا. وقد  
هددوا إنَّ ظل اسمك يتردد عندهم أن يلحقوا الضرر بأقرانك الذين  
أظهروا تضامنهم معك، فأغلق يا ولدي ذاك الباب إلى حين... وليس  
ذلك بمستغرب منهم، فَكُلَّ أَخذ بعنق من تحته!».

أزال الحديثُ مع أبي عني كل غمٍّ. أبي. ليس هذا الرجل عاديًا: حدَّثني  
عن أب يزور ابنه بداخل المعتقل فلا تنطق شفتاه إلا بكلمات التثبيت  
والتأييد والتشجيع على السير قدمًا في هذا الدرب.  
أقسم أن تلك الكلمات لا أنساها وإنَّ طال بي العمر أو كثرت بي  
الأحداث أو تغيرت بي الأرض: أب مكلوم يُلقِّن ابنه الوحيد دروسًا في  
الثبات وحب الوطن... الوطن الذي يقبع في سجونته!

مازج ضحكنا دموعنا إبان الوداع، رغم أن مكان الزيارة كان مع محكومي  
الإعدام في مكان معزول، لكن رؤية أبي قد أنستني طبيعة المكان من  
حولي وحوَّلته إلى جنة خضراء لا أرى فيها سوى هذا الوجه الباسم!



## إِذَا خُيِّرْتَ.. فَاخْتَرِ أَلَّا تَخْتَارَ!

رجعت مُشَرَّدَ النَّفْسِ بعد ذهاب أبي، بين تأثير حديثه الطيب والوسواس الآخر الذي يُوهمني أَنَّ المستقبل يمثل أمامي في ورقة لن أمسها.

حاولوا استغلال حالتي النفسية التي تركني بها والدي ليُخَيِّرُونِي بين أمرين كلاهما مرّ: إما أَنْ أمكث في هذا السجن حتى يُخطروا الكلية بالتماسي، ومنتظر إلى أجل غير مسمى، متعلقًا بأمل أَنْ تأتي اللجنة التي لا تعرف مكان احتجازي رسميًا! أو بالأحرى تَبَرَّأْتُ مِنِّي! أو أَنْ أُوقَّعَ بالقوة طلب تنازلي عن أداء الامتحانات وعدم تكرار هذا الطلب، ومن ثم عودتي إلى سجن العمومي الأوّل القريب من بلدي في شمال البلاد، حتى أكون قريبًا من أسرتي ومقر محاكمتي التي سيتم تحديدها لاحقًا في تموز/يوليو، وأُسْتَعْوِضُ اللّهُ في السنة الدراسية كما قال أبي، وأعود بخُفْيٍ حُنِينٍ، معتذرًا عن عدم أداء الامتحانات لا محرومًا منها بالتعسف والقهر!

يا لهذه المأساة! مأساة المنع من الامتحانات التي تلحق بآلاف الطلاب في كل موسم امتحانات في كل السجون المصرية وكلها

مُرتبة ومقصودة بغرض إزهاق روح طلب العلم وتمزيق إرادة التعلّم.

أدخلوني مكتبة السجن التي تقتصر موجوداتها على عدد من الكتب البالية التي غطّأها التراب. على بابها شخص بلباس مدني عرفت منه أنّه يعمل بصفة «اختصاصي اجتماعي».

دخلت مُقيِّدًا، (مُكَلِّبًا)، وأصررت على أن أدخلها وفي يدي قيدي وكتبي لأن هذا القيد سببه العلم والسعي وراء الحرية: حرية قد جلبت عليّ اعتقالًا وسجنًا وتعذيبًا وألمًا ورسوبًا في كليتي التي طالما طمحت إلى الالتحاق بها.

جلستُ مع هذا المدني، فراح يسألني عن أيّ العلوم أدرس؟ فقلت له: العلوم السياسية! فقال: وماذا فعلت لك السياسة إذًا؟ وبلهجة ريفية: «رَمَتَكَ للسجن»، فَردَدْتُ عليه: «بل رمتني إلى المعرفة والعلم بحقيقة الأشياء والمجتمع ومواقف لم أكن لأتعلّمها لو جُبت بلاد العالم. وعرّفتني أيضًا أن مصر لا علمَ بها ولا تعليم، وما الفوزُ إلا لأصحاب الجهالة! تعرّف، يا أستاذ، لقد أكسبتني هذه التجربة أضعاف الـ ١٩ عامًا التي عشتها!» وكان المُخبرُ ورائي في هذه اللحظة يُصغي، وكنت على يقين أنّه لم يفهم شيئًا مما قلت.

هذه حالة الهرم السلطوي العسكري والشرطي في جمهوريات الموز: أجهزةٌ أمنيّةٌ يتحكّمُ بها سلطويون أغبياء، ومن تحتهم أجسادٌ بلا

عُقُولٍ تُؤَمَّرُ فَتَطِيحُ، رَأْسٌ يُحَرِّكُ وَمَرُؤُوسُونَ يَتَحَرَّكُونَ كَالدُّمَى، وَقَتَلَةٌ  
بِلا رَحْمَةٍ وَلَا شَفَقَةٍ.

جِيءَ بِوَرَقَةٍ مَكْتُوبٍ فِيهَا:

«السيد الأستاذ الدكتور...

عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة...

أَتَقَدَّمُ، أَنَا الْمَتَهَمُ سَيْفُ الْإِسْلَامِ السَّيِّدِ صَبْحِي، بِاعْتِذَارٍ عَنِ  
عَدَمِ أَدَاءِ امْتِحَانَاتِ الْفَصْلِ الدَّرَاسِيِّ الثَّانِي لِلْعَامِ الْجَامِعِيِّ نَظْرًا  
إِلَى بَعْضِ الظَّرُوفِ، وَأَرْجُو مِنْكُمْ قَبُولَ هَذَا الْإِعْتِذَارِ».   
وطلِّبَ مِنِّي التَّوْقِيعَ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ الْفَارِغِ. كَانَتْ الصِّيغَةُ جَاهِزَةً  
وَالْكَلامُ مُعَدًّا، وَالسَّيْنَارِيوُ مَحْبُوبًا كَحَبِكَةِ حَبْلِ الْمَشْنَقَةِ حَوْلَ الرِّقَابِ.  
أَحْسَسْتُ بِأَبْعَادِ الْمُوَامَرَةِ!

أَمْسَكْتُ بِهَذِهِ الْوَرَقَةَ وَمَرَّقْتُهَا أَرْبَعًا وَأَرْسَلْتُ الضَّحْكَ وَالسَّخْرِيَةَ مِنْ  
سُوءِ الْخَطِّ وَالْأَخْطَاءِ الْإِمْلَائِيَّةِ وَالصِّيغَةِ الْحَقِيرَةِ وَالْوَرَقَةَ الْبَالِيَةَ.  
ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ، وَلَمْ يَعْذِرْ لَدَيَّْ مَا أَدَاهُنْ مِنْ أَجَلِهِ:  
وَلِمَاذَا أُرْسِلَ لَعَمِيدِ الْكَلِيَّةِ؟! وَلَا شَأْنٌ لَهُ وَلَا سُلْطَةٌ... السُّلْطَةُ الْمَطْلُوقَةُ  
لِلْأَمْنِ وَمُصْلِحَةُ السَّجُونِ؛ وَلَوْ أَقْسَمَ عَمِيدُ الْكَلِيَّةِ عَلَى امْتِحَانِي لَمَا  
غَيَّرَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا!

لِمَ لَا نَجْعَلُ الْوَرَقَةَ وَرَقَتَيْنِ إِذَا يَا رِفَاقَ؟ طَلِبَ تَأْجِيلَ يُوجِّهُهُ  
إِلَى عَمِيدِ الْكَلِيَّةِ كَمَا تَحْبُونَ! وَطَلَّبُ «يُرْفَعُ» إِلَى السَّيِّدِ الْأُسْتَاذِ  
الدُّكْتُورِ... مَأْمُورِ السَّجْنِ بِرَغْبَتِي فِي التَّرْحِيلِ إِلَى السَّجْنِ الْعَمُومِيِّ  
بِجَانِبِ مَحَاكِمَتِي وَقَرِيبًا مِنْ أَهْلِي...

وَلِيَكُنْ نَصٌّ طَلِبُ التَّأْجِيلِ الْمُرْسَلِ إِلَى عَمِيدِ الْكَلِيَّةِ... وَسَأَكْتُبُهَا عَنْكُمْ:

«السيد الأستاذ الدكتور...»

عميد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة...  
أتقدم إليكم، أنا الطالب فلان، المُقَيّد بالفرقة الأولى شعبة  
اللغة الإنكليزية ورقم جلوسي ٤٤٤، بطلب تأجيل الامتحانات  
نظرًا إلى ظروف المعتقل غير المؤهلة للمذاكرة ولا للعيش  
الآدمي ولعدم قدوم لجنة لامتحاني!»!

استغرب الاختصاصي الاجتماعي من الصيغة: كتبت «الطالب»  
بدلاً من «المُتَّهَم»، «المُعْتَقَل» وليس «السُّجْن»، تأجيلاً وليس  
اعتذاراً! فأجبت أنه هذا كل ما لديّ، ولن أوقّع ولو بالقوة سوى  
على هذا الكلام! أنا لا أعتذر عن عدم أداء الامتحانات، الكلية  
هي من عليها الاعتذار لي، وهذه الامتحانات مؤجلة إلى موعد  
خروجي.

ومع تلك الهيمنة المؤقتة من طرفي، فقد خَفَت كل ذلك  
الاندفاع فجأة؛ وهكذا الشأن في المعتقل أو في أي مكان تحت  
سطوة القهر والاستبداد لا تستقيم لك نفسك على حال واحدة،  
بل تتقلب بين اليأس والأمل، الفتور والمقاومة. فلا عجب أن  
لاح في أفق مُخيلتي مستقبل أسود بدأت ترتسم ملامحه!  
طالبٌ متخلف عن دفعته التي كانت باكورة الكلية وجيلها  
الأول... تُرى كم دفعة سأخلف؟  
كم شهراً سأملكث في السجن بلا امتحانات ولا شهادات؟  
دارت في ذهني تلك الأسئلة كآلاف الطلاب الذين حُرّموا من  
الامتحانات ولم يُسلط أحد الضوء عليهم.

دار في ذهني طول المكوث الذي لن تأبه به مصلحة السجون، ولا وزارة التعليم العالي، ولا أي من أدياء المنظمات الحقوقية في الداخل الذين يُدار معظمهم من خلال وزارة الداخلية، (من مثل «المجلس القومي لحقوق الإنسان»)، الذي تحدث أكثر من مرة، أثناء فترة اعتقاله، عن سعيه لحصر عدد الطلاب المعتقلين في السجون على ذمة قضايا سياسية.

وكم من مرة زُين لنا الأمل في الخروج بعدما تم حصر أسمائنا بطريقة تثير الحسرة المضحكة. كان يدور على عنابرنا شخص لم يَحْظَ من التعليم بغير الشهادة الإعدادية أو ربّما قد أنهاها وهو لا يدرى القراءة الصحيحة أو «فكّ» الخط العربي إلا بصعوبة بالغة وينعق: «مين الطلاب اللي هنا؟»

ودعني أحدثك عن كمّ الكوميديا السوداء عندما كان يُسَجَّلُ الأسماء ويحصرها، هذا في كلية الطب البشري وذاك في كلية الهندسة — وما أكثر طلاب الهندسة في السجون المصرية — وهذا في كلية الألسن، وآخر في كلية الشريعة والقانون وذاك يدرس تخصصًا نادرًا في كلية العلوم. (والحقيقة أن الطلاب الإسلاميين مشهود لهم بالجدارة والتفوق في الكليات العملية، ويندر وجودهم في الكليات التي تهتم بدراسة العلوم الاجتماعية).

صفحة يَنْضَاءُ فِي الأَصْلِ

## طول المقام يَسْتَجَلِبُ الألفه

عُدت إلى غرفة الرفاق، واتخذت منذ ذلك الحين قرارًا أنني مهما طَالَ بي زمان الاعتقال أو قَصَرَ سَأْهُبُهُ للعلم والتعلُّم والاستفادة والتجربة من هذا المجتمع المنعزل الذي لا يعرف عنه الكثيرون أيَّ شيء، ولربما أكون ناقلًا لبعض ما يحدث داخل مجتمع «المساجين الجنائيين»، ذلك المجتمع الشاذ حقًا الذي ينتشر فيه وجود ضحايا على أشكال بشر مُزُقت أشكالهم وفُطرتهم طوال فترات الحبس.

لم يكن من العشرين مسجونًا أحدٌ مُتَعَلِّمٌ إلا سبعة، ومع ذلك كان لكل من البقية تجربته الشخصية التي استفاد منها ما لم يستفده المتعلم بين جنبات الجامعة؛ من هؤلاء رجل على أعتاب الشيب كنت أحب مجالسته، وقد مكث في السجن بمثل عمري: تسعة عشر عامًا لم ير فيها الشمس...

وبالمقابل، تجد من زاده السجن سوءًا وحنفًا على المجتمع بأسره، حتى إنَّه يتوعَّد الناس جميعًا ويحمِّلهم جريرة حبسه! فإن كان لصًا فهو يحقد على كل الأغنياء. وهلم جرًا. علَّمني هؤلاء أنَّهم ضحية تقصير، وقد جنى المجتمع عليهم، وقد

درجوا على العيش في السجن حتى صار لهم، (ولم تكن مرّتهم الأولى سوى زلّة)، عادةً ثم سلوكًا دأبوا عليه حتى صاروا مجرمين.

حاولت أن أُحدِث أثرًا ما بينهم، فمن كان أميًا علّمته مبادئ القراءة والكتابة، ومن لم يكن يتوجه إلى محراب أبدًا، علّمته الصلاة وصلّينا معًا.

جلست على هذه الحال عشرة أيام لم يقطع سيرها المتشابه سوى زيارة أمي الحبيبة التي قطعت الطريق من أقصى شمال البلاد إلى جنوبها متشوّقة إلى لقاء ابنها.

وجدتُ في سلوى الحديث معها ما أراح مرارة السجن عني. حُضّنها أعاد إليّ روعي التي جفّت والحديث إليها أذهب عني كربى. وبخلاف الأب لا تتصور الأم بسهولة أنك صرت إلى مأل آخر وتتحمل كل تلك الأمور؛ وهذه هي عظمة الأم، لا تزال تُحْيِي فيك معاني الطفولة حتى تذهب عنك!

وَدَعْتُ أهلي مُجَدِّدًا وَعُدْتُ إلى الزنزانة أو قُل إلى المنفى، وبعد أيام جاء طالب آخر، اتُّهم في قضية مماثلة وقد جيء به من مجمع سجون طُرة بالقاهرة، ولكنه أصاب مادتين فقط من ست مواد كانت مُقَرَّرَةً في تخصصه. لَمْ نَبَقْ معًا سوى خمسة أيّام، لأنّها بالنقاشات العلمية والتشارك في القراءة وتعليم من معنا، وكذلك الطالب يكون مشكاة في أيّ مكان يزوره.

أحسست بأنّي قد أنهيت ما كتبه الله من البقاء في هذا المكان. أنهيت من دروس الحياة التي علموني إياها هؤلاء السجناء، وأنهيت



مع تلك الأيام ما فتح الله من العلم كي أعلمهم إياه، وكلها كانت دروساً في مبادئ الإسلام وما علينا من حقوق تجاه خالقنا وأنفسنا والمجتمع، ورغم هذا كان لهذا التعليم ما وراءه.

لا أخفي أنني قد تعلمت منهم كثيراً، وكنت مؤمناً تمام الإيمان بأن الله لا يضعني في مكان إلا لسبب، ولما كان سعيي دائماً أن أسير في طريق العلم والمعرفة حسبت منذ أن وطأت قدمي هذا المكان بعد تعذيب شديد لم ألق مثله في حياتي قط أنني هنا لمهمة. عرفت أن هناك مكافأة من الله لي في هذا المكان: كانت المكافأة الخلوة مع النفس، والأثر النافع لمن حولي.

ومع انتصاف أيار/مايو، انتهت أيامي هنا، وإذا بالنداء يؤذن برجوعي إلى سجنى الأول!

صفحة يَنْضَاءُ فِي الأَصْلِ

## مشاهدٌ من عربةِ الترحيلات

تهيأتُ أنا وعشرون آخرون للترحيل.  
كلهم متشحون بالثوب الأزرق الذي يشير إلى أنهم أصحاب قضايا  
وأحكام، أمّا أنا فبالثوب الأبيض — هذا الأبيض الذي مللته حتى  
ظننت أنّ البياض لون العتمة والظلم... وبعض الكتب تحت ذراعي،  
ويداي يزيئُهُما قيد حديدي صُنع في بلد آخر غير بلدي، استورده  
الجلادون ليقيدوا به كل من ناصر الحرية يومًا!

تحت قيظ الصيف، حُشِرنا حشرًا في العربة الزرقاء التي ستقلنا  
جميعًا، رغم أنّها لا تتسع إلا لعشرة مساجين فقط. حُشِرنا في  
العربة الزرقاء بأيدي جلاوزةٍ لا فهم ولا عقل، كما تُحشِر الطيور  
الدواجن في قفص.

بدأ النقاش بين جيراني في العربة الزرقاء واحتدّ في مواضيع  
لا أفهم عناوينها؛ كل كلامهم يدور على المخدرات ومعاركهم مع  
المباحث. أحدهم يفخر بأنّه قضى يومًا أو يومين في الانفرادي،  
وآخر بأنّه ضُربَ ضربًا مبرحًا ولم يتفوّه بكلمة «آه»؛ وغير ذلك  
من أحاديث حياتهم جعلتني أحمد الله ألف مرة أنّني اعتُقلتُ مع  
السياسيين رغم حدة التعذيب!

مَرَرْتُ في هذه الرحلة بأربعة سجون كان أولها أشهر سجون مصر: طرة الذي عَرَفْتُ قضبانَه كل نخب مصر... أقيتُ عليه نظرة من شباك العربة الزرقاء، وأنصَرَفْتُ إلى كتابي الذي أمسكته بكل صعوبة من خنق القيد ومن زحام المكان. سلكت العربة طريقها في شوارع القاهرة «المحروسة» وما أصعب أن تراها من شباك العربة الزرقاء! وإذا بأحدهم تسيل عبرته ناظرًا من الشباك، حتى تَنَبَّهْتُ له فسألته: «لِمَ تَبِكُ؟»، فردَّ آسَفًا: «أسكن هُنا، هُنا بيتي ومنطقتي التي ولدت وتربيت فيها، هنا تسكن أمي العجوز التي لا تقدر أن تزورني بسبب عجزها» ومن كانت هذه حاله يكفيك أن تسمع قصته وتصمت...

شوارع القاهرة من نافذة عربة الترحيلات عجيبة؛ ملكني الشوق وقتها أن أسير في تلك الشوارع وأحتضن زحامها وأدقق النظر في مبانيها البالية التي علق في ذرات ترابها تاريخ من الدول: هُنا حاكم قد ظَلَمَ فقتل، وهُنا حاكم قد عَدَلَ فأكرم، وهُنا مناضل قد هَتَفَ فسالت دماؤه فأعادت للأمة حقوقها، وهُنا طالبٌ للعلم ملأ الدنيا بالحكمة، وسار في شوارعها مغتربًا يبحث عن كتاب، أو مهمومًا يتنقل بين حاراتها ومناطقها القديمة يبحث عن دفء المكان وعبق الماضي.

هُنا القاهرة! قد سطا عليها القتلة ومقيدو الحريات! قد آل أمرها إلى سفهائها وجهلائها، وقد باعها كل خائن يتاع الثمين بالبخس. نظرت آسَفًا، تكاد العبرات تسيل منِّي أنا الآخر، والناس في الشوارع لا يابهون بتلك العربة ولا بمن فيها. حزنت ثم استنشقت عبير

الأمل من جدرانها التي قد زينتها الشعارات الرنانة والهتافات كأني  
أسمعها تصدح بها؛ تخيلت أني أقف أمام أحدها وأكتب بخط  
عريض: كل هذا سيزول حتمًا! وستُزيل رياح الحرية غبار الاستبداد!

سارت العربة واخرقت الشوارع تحوم حولها ثلاث عربات أخرى  
قد اكتظت بالجنود والسلاح. مررنا على السجون الثلاثة الأخرى،  
وكم فيها من مظالم!، ووُزِعَ رفاق العربة عليها.

وَلَمْ يَبْقَ سِوَايَ فِي الطَّرِيقِ إِلَى المَحَطَةِ الأَخِيرَةِ.

كان الوقت قد شارف مغرب الشمس، فرسمت الشمس لوحتها  
الحزينة على سماء الحرية. ألهب المشهد مشاعري وذكرت في  
نفسي قدر الله بغروب كل ظلم واستبداد، وكأن السماء تقول لي:  
يا هذا الضعيف، إِنَّ كُلَّ هَمِّ غَارِبٍ، وَإِنَّ كُلَّ فَرَجٍ آتٍ فَاصْبِر.

كانت صورة حزينه أراقبها حتى حلّ الظلام على العربة، فَظَلَلْتُ  
واقفًا على الشباك أراقبُ الطريقَ والعرباتِ والناس، وإذا بهذا الأنيسِ  
الذي ألفتَه صغيرًا وحرمني منه السجن — رفيقِ صغري الذي كنت  
أناجيه وأتحدث معه فَأُحِسُّ ببسمة حين أفرح وبعبوسه حين  
أحزن، أعشق النظر إليه حين يكتمل ويبلغ تمامه، وأنتظره كي  
أتابع سيره وحركته ونموه... إذا بـ«القمر» الذي حرمني منه السجن  
ينكشف لي كأبهي ما يكون.

فَرِحْتُ بهذا اللقاء وَرَجَوْتُ الطريقَ أَنْ يطول حتى أستعيد ذكريات  
سعيدة قد قطعها ظلم الأسر.

طال اللقاءُ ساعاتٍ وساعاتٍ حتّى عرفت أنّ العربةَ الزرقاءَ ضلّت  
طريقها وربما أمكث فيها إلى منتصف الليل...  
ما همّني أنّني لم يدخل جوفي رغيف عيش واحد أو شربة ماء...  
كنت سعيدًا بلقاء «القمر»!

وصلت إلى السجن بشمال البلاد عند منتصف الليل... وَفُتِحَتْ  
لي البوابات الضخمة، والعسكر يتأهب لاستقبالي، وكان ما كان مِمَّا  
لَسْتُ أنساه... فَظُنَّ خَيْرًا ولا تسأل عَنِ الْخَبَرِ!

## وفي الختام...

انتهت «رحلة الامتحانات» بدروس لَمْ أنْسَهَا ولن أنساها ما حييت، ومهما طال بي الزمان وطفت من البلاد. هذه الرحلة كنت أتذكرها كلَّما جلست في لجنة الامتحان بقسم العلوم السياسية، وأمسكت بالقلم لأكتب اسمي وفرقتي فوجدتني قد تأخرت عامًا عن تخرجي، وتذكرتها جيدًا حينما ناقشت مشروع تخرجي، وخلال حفل تخرجي، وحتَّى عندما صعدت إلى الطائرة مغادرًا بلادي.

دخلت السجن صبيًّا فخرجت منه رجلًا وقد أحسن بي العزيز! وها أنا أعيد صياغة هذه الكلمات بعدما تركت الوطن وسافرت كي أكمل دراسة الماجستير في العلوم السياسية... أروي حكايتي التي حدثت منذ خمس سنين كما لو أنَّها حدثت منذ أشهر فقط!

انتهت تلك الرحلة بحلوها ومرها، ولم يعد أحد يسأل عني إلا أوفياء ظلُّوا على العهد. خرجت من المعتقل لأكمل الدراسة الجامعية بروح غير تلك التي

بدأتها بها، وبعقل يعرف المقصد والمراد، والعدو من الصديق، ولكنَّ السجن ترك أثراً في العقل غير الذي قد تركه في الجسد! في السجن عرفت مجتمعاً آخر، بل عوالم أخرى، لا يعلم عنها «الإسلاميون» شيئاً: أناساً وُلدوا في قلب الإجرام واعتادوا عليه، ولم يجدوا من يخرجهم من ظلمة الإجرام إلى نور الحياة... في كل دقيقة قضيتها معهم أحسست بالتقصير! كيف لهؤلاء أن يعيشوا بيننا ولا نبذل جهداً لإخراجهم من الظلمات إلى النور بزعم أننا دعاة للخير؟ كيف لا ندعو الناس للخروج من جور الإجرام إلى عدل الله ومعرفته؟!

تألمت كثيراً لفراق صحبة السجن، لكن ألمي الأكبر أن يعود أولئك القلة الذين تقدمت معهم خطوات إلى الوراء. فاختلاط الإسلاميين في سجون مصر بمن لاقوا من الجنائيين سَهَّلَ تَحَوُّلَ كثير منهم إلى طريق آخر بلا شك، حتى إنَّ ذلك أغاظ النظام فقرر فصلهم عدة مرات وهي حالات تستحق الدراسة فعلاً؛ (تفاعل الجنائيين مع السياسيين داخل السجون المصرية).

لقد كانت تجربة السجن مليئة بالحكايات والأحداث المؤثرة، لكنني لم أكتب منها سوى رحلة الطالب إلى مقر امتحاناته التي لم يُودَّها.

قضيت في السجن ٣٨١ يوماً، ما دوّنت منها سوى تلك الأيام لأنها مسّت رسالتي التي أعيش من أجلها رسالة «طلب العلم».

السجن ظلمة ووحشة واختبار ومفترق طرق يقف على نواصيها من ربما تلقي به المقادير في مهاوٍ لا ينجو منها.



السُّجْنُ مصنع ومدرسة وجامعة لكل من أخلص النية ووجد العزم...  
السُّجْنُ علامة مضيئة لا تفارق المرء طيلة حياته؛ تبقى ما بقي  
وتُذكر ما دُكر، وتحيا معه ما حيي... تكاد ذكريات السُّجْن لا تغادر  
ذهني في كل ساعة وفي كل جلسة وفي كل سفر... أتذكر أدقَّ  
التفاصيل: ما أضحك وما أبكى، ما علّم وما وعى، ما أفاد وما آلم،  
ما أسعد وما أحزن... يبقى أثره، سواء في العقل بما أضاء أو في  
الجسم بما ترك من علامات وآلام.

هذه ليست حكايتي وحدي، بل حكاية الآلاف من الطلاب المعتقلين  
الذين كَتَبَ السُّجْنُ عليهم الانقطاعَ عن الجامعة، وإنَّ ما حدث  
معي لينتكر كل يوم في سجن غير السُّجْن ومع طالب غير الطالب  
في تخصص غير التخصص، ولكن يبقى أن الظالم واحد والمستبد ذا  
منهجية واحدة يعادي أهل العلم فيستفزههم.

وإنَّ هذه الحكايات إلى زوال، كما أنَّ الاستبدادَ، مَرَضَ هذه الأمة،  
إلى زوال إذا ما توحدت إرادة الأمة على إزالته، وإنَّ صوت الطالب  
في زنزائنه، وفي جامعته، سيبقى ويُرفع في ميادين الجهاد منتصراً  
على كل استبداد وسلطوية، ومعركة الطالب دوماً مستمرة ما  
استمرت مؤسسات العلم...

هي مبادئٌ تُورَثُ جيلاً بعد جيل، ولأنها كذلك، ومهما اشتد الظلم،  
«يبقى الطَّلَبَةُ هم الحَلُّ».